الرسالة الثالثة

الجهاد في سبيل الله في مجال التضحية

- القتال ضرورة فى الحياة
- القتال من جانب المؤمنين
- الماديون الملحدون أو المشركون
- ليس فى القتال معجزة
- النصر النهائى للإيمان بالله
- أجر المقاتل عند الله
- الجهاد اليوم فى سبيل الله

obeikandl.com

obeikandl.com

القتال ضرورة فى الحياة

طالما أن الحياة فيها الحق والباطل ، وفيها الاستقامة والانحراف وفيها العدل والظلم ، وفيها الخير والشر .. طالما فيها الشئ ونقيضه ، وفيها الإنسان ذو العقل والحكمة وذو الهوى والشهوة ، وصاحب الإيمان بالله وبالقيم الإنسانية العليا وصاحب الكفر بها .. طالما أن الحياة الإنسانية على هذا الوضع فالقتال ضرورة من ضروراتها لمنع الفساد ، وطغيان الشر والهوى ، والكفر بالله وبالقيم العليا ، وللإبقاء على الإيمان والعدل والخير ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّه النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١) . ويقول كذلك : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّهِ كَثِيراً ، وَلَيَنصُرَنَّ اللّهُ مَنْ يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢) .

ففى الآية الأولى يبرز ضرورة القتال بالحفاظ على الأرض من الفساد ويشير إلى أن ضرورته تعتبر نعمة وفضلا من الله على العالم الإنسانى .

وفى الآية الثانية يوضح ما أجمله من فساد العالم إذا لم يكن القتال مبدأ ضرورياً فى حياة الإنسان ـ من أن الفساد يتمثل فى ضياع الإيمان بالله الذى يُعَدّ بيت الله له رمزاً : ﴿ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّهِ كَثِيراً ﴾ .

وإذن هدف القتال هو الحرص على بقاء الإيمان بالله على هذه الأرض ، وإذن القتال من أجل هذا الهدف فريضة وواجب على كل من يستطيعه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) . (أى والله يعلم ما هو فى صالح البشرية عامة ولذا أوجب القتال ، وأنتم لا تعلمون حقيقة هذه المصلحة العامة ولذا قد تكرهون القتال) .

---

(١) البقرة : ٢٥١ (٢) الحج : ٤٠ (٣) البقرة : ٢١٦

والقتال كذلك قد يكون مكروهاً وبغيضاً للنفس الذى تُحمل على مباشرته . لأنه قد يُعَرِّضها للموت والفناء ، أو على الأقل يُعَرِّضها لفوات الاستمتاع بالسكنى والاستقرار فى هذه الحياة ، كما يُعَرِّضها لمواجهة المشقة النفسية والبدنية فيها .

وإذا كان هناك احتمال ـ وهو احتمال كبير فى الواقع ـ أن يشق القتال على النفس وأن تتضرر به ، ولذا تكرهه وتبغضه ، فلا بد أن تكون هناك فريضة فى الدين تدرب المؤمن على القتال ، وتجعل منه عبادة يُتقرب بها إلى الله . وكانت هذه الفريضة هى « الجهاد فى سبيل الله » وهى فريضة ليست موقوتة بوقت معين ـ كما حرَّفتها القاديانية لمصلحة السياسة الأجنبية فى الهند فى القرن التاسع عشر ـ بل فريضة دائمة ما دام الإنسان على هذه الأرض ، وما دام يتردد بين الإيمان بالله والكفر به ـ وبين الحق والضلال .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (١) .

والذين آمنوا لا ينعدم وجودهم ، والذين كفروا لا ينعدم وجودهم كذلك إذا انتهت الحياة الدنيا وانتقل أمر الوجود كله إلى الدار الآخرة . ولذا فالجهاد فى سبيل الله باق ، والمؤمن بالله يجب أن يتخذ منه مجالاً للتدريب على التضحية بالذات فى سبيل الله ، طالما هو يعيش على هذه الأرض ، وطالما هو مكلف بمقاتلة أولياء الشيطان ، وهم الكافرون المعتدون ، وهو إذ يملأ نفسه بالرغبة فى التقرب عن طريقه إلى الله سيؤديه وهو غير كاره له . بل على العكس سيؤديه وهو متطلع إلى يوم لقائه مع الله عز وجل ، وإذ يؤديه وهو على هذا الوضع لا يخشى على فوات دنيا من مال وولد وزينة ، كما لا يرهب الموت ، لأنه سيجد فى البديل عن ذلك عند الله ما هو خير وأعظم قدراً : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِى

---

(١) النساء : ٧٦

سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) فسواء عليه غلب عدوه وانتصر عليه ، أو قُتل فى لقائـــه معـــه ، فإن الله قـد وعده بأجر عظيم على ما آثره من آخرة على الدنيا فى جهاده فى سبيل الله .

والحفاظ على الإيمان بالله هو سبيل الله . وهو الغاية من القتال والجهاد . والقتال أو الجهاد بالنفس قُربة إلى الله إذا تمحضت غايته للإيمان بالله ، ولتمكين المؤمنين بالله من ممارسة عبادتهم لله وحده . ووعد الله بنصره للمقاتلين والمجاهدين هو بسبب حرصهم على بقاء الإيمان بالله ، ورغبتهم فى استمرار عبادتهم لله ، طالما هم يعيشون على هذه الأرض :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (٢) .

.. فهو فى وصفه للمؤمنين الذين وُعدوا من قبله بنصرهم يصفهم : بأنهم إذا مُكِّنَ لهم فى الأرض وكانت لهم السيادة عليها حققوا إيمانهم بالله فى مظاهرة من : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

وهذا يعطى : أن المسلمين إذا ظلوا على الانتساب إلى الإسلام ، دون أن يحققوا الإيمان به فى حياتهم المقبلة ليس وعد الله لهم بالنصر مكفولاً ، وليس الجهاد عندئذ فريضة يتقرب بها إلى الله . لأنه قد يكون جهاداً فى سبيل الشيطان ولأوليائه .

* * *

(١) النساء : ٧٤ (٢) الحج : ٣٨ ـ ٤١

القتال من جانب المؤمنين

وإذا كان القتال مبدأ ضرورياً فى حياة الإنسان ، وإذا كان الجهاد بـه فى سبيل الله فريضة على المؤمن المستطيع للمحافظة على بقاء الإيمان وممارسته فى حياته ، فمتى تكون مباشرته من جانب المؤمنين حقاً وواجباً .

إن المؤمن يقوم بمباشرته للجهاد عن طريق القتال إذا اعتُدى عليه من عدوه . وعدوه :

١ ـ الكافرون من أهل الكتاب .

٢ ـ والكافرون الملحدون من الماديين أو المشركين .

وأهل الكتاب إن آمنوا بالله واليوم الآخر على نحو يغاير الإسلام ، فإن الملحدين الماديين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . بل ويصدون عن سبيل الله ويحاولون بقدر إمكانهم أن يردوا المؤمنين عن دينهم .

ومشروعيـة الجهاد عن طريـق القتال تبدأ من الاعتـداء على المؤمنين : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (١) . فيؤذن للمؤمنين بالقتال عند وقوع العدوان عليهم ، وذلك بسبب ما يلحقهم من ظلم واعتداء . وهنا يعلن الله جلت قدرته أنَّهُ :﴿ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ لأنه يقف بجانب المظلوم ضد الظالم والمعتدى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(٢) . فالقرآن يدعو المسلمين إلى أن يتمسكوا دائماً بما هو إنسانى فى معاملة أنفسهم وغيرهم . فهو إذ يشرع القتال يشرعه فى حدود ، ولهدف معين لا ينبغى أن يتجاوزه .

ولذا إذ يشرعه فى حدود معينة ولهدف معين ، يطلب إنهاءه عندما يعلن الطرف المعتدى قبوله للسلام ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) الحج : ٣٩ (٢) البقرة : ١٩٠

(٣) الأنفال : ٦١ ، ٦٢

فهو يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام بقبـول السلام عندما يُعرض عليـه لا عن ضعف أو خوف ، ولكن محافظة على عدم الاعتداء على العدو ، بعد أن يعرض السلام من جانبه . وفى الوقت نفسه يطمئنه عليه الصلاة والسلام بوقوف الله بجانبه وباعتماده عليه لو كان باطن عرض الأعداء من سلام هو الخدعة والمكر السئ . وذلك لكى لا يتردد عليه السلام كبشر فى قبوله للسلام عندما يُعرض عليه .

كما يطلب أيضاً إنهاءه عندما ينهيه العدو من جانبه ، على نحو ما يذكـره الله سبحانـه وتعـالى فى قولـه : ﴿ فَإِنْ قَـاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِن انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وإذن لا حاجة للمؤمن فى استمرار القتال من جانبه . فالقتال ضرورة تقدر بقدرها . وقدرها هو : رد الاعتداء وإنهاء العدوان والعودة إلى مجرى الحياة العادى .

* * *

الماديون الملحدون أو المشركون

وإذا كان هذا هو موقف القرآن بصفة عامة إزاء العدوان والاعتداء ، فإن له موقفاً يزيد على هذا التحديد إزاء الماديين الملحدين . ولكى نحددهم أولا نرجع إلى القرآن الكريم فى أوصافهم التى هـم عليها ، فهو يقول فى شأنهـم : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَـرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ (٢) .

فهم لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يعرفون منكراً ولا فاحشة يُحَرِّمونها على أنفسهم . بل يبيحون فعل ما يرونه لصالح أنفسهم ولو كان ضاراً بغيرهم .. يبيحون انتهاك الأعراض ، والأموال ، والأنفس .. يبيحون الإرهاب والإذلال ، والتحكم فى الآخرين ، طالما فيه صيانة لمصلحتهم

---

(١) البقرة : ١٩١ ، ١٩٢ (٢) التوبة : ٢٩

الشخصية . هم « وجوديون » أو « أنانيون »أو « منفعيون » .هم ماديون ينكرون « الروحية » بل وينكرون العقل لحساب البدن ومتعته وملذاته .

وفى مقابل هذا النوع من الماديين والملحدين الوجـوديين تصف الآيـة نفسها ـ فى بقيتها ـ الضرب الآخر من الكافرين من أهل الكتاب فتقول :

﴿ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (١) .

فكفر أهل الكتاب لم يبلغ إلى إنكارهم لله ولليوم الآخر . وإنما مبلغه : أنهم لا يدينون دين الحق . . أنهم يختلفون فيما يدينون عن كتاب الله ورسالته ، وأهل الكتاب الباقون على عهد الرسالة الإسلامية وهم :

١ ـ اليهود . ٢ ـ النصارى .

وهذه الآية تعطى : أن الذين يواجهون الإسلام ويتحدونه بعداوتهم هم : أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، والماديون الملحدون ـ أو المشركون .. وهؤلاء وهؤلاء لن يفنوا ، كما لم يفن المسلمون ، وإذن تحديهم باق ، وعداوتـهم باقيـة ، وانتظار عداوتهم واعتدائهم باق ، والجهاد عن طريق القتـال بـاق ومستمـر ، وفريضته لذلك باقية ومستمرة .

هؤلاء الماديون الملحدون ـ أو المشركون ـ يقفون من المؤمنين بالإسلام موقفاً فيه تحرش وتحد ، يقول القرآن الكريم فى شأن موقفهم :

﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢) .

كما يقول :

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ، إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لاَ يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ

---

(١) التوبة : ٢٩ (٢) البقرة : ٢١٧

وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِن نَكَثُوا أَيْمَانَهُم مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ * أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ ، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١)

... فهذه الآيات تحـــدد موقف الماديين الملحدين ـ وهم من تعبر عنهم بالمشركين ـ بأنهم في حال القتال مع المؤمنين :

(أ) يواصلون القتال ضـــــدهم حتى يردوهم عن الإيمان ، إن استطاعوا : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (٢) .

(ب) ولا يرعون علاقة ما ، من قرابة ، أو جوار ، أو ذمة ، أو عهد إن ظهروا على المؤمنين وظفروا بهم : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ﴾ .

وفي حال السلم معهم :

(أ) تصر قلوبهم على العداء ، وإن عبَّرت أفواههم عما يُرضي المؤمنين رياء ونفاقاً : ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾.

(ب) ويصدون عن سبيل الله ، ويمنعون بكل وسيلة أن يؤمن به أحد تحصيلاً لمتع الحياة المادية : ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ، إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

(جـ) ويبيتون النية على الاعتداء ضـــد المؤمنين ، ويبادرون إلى مباشرتـــه : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾.

---

(١) التوبة : ٨ ـ ١٦ (٢) البقرة : ٢١٧

وإزاء هذا الموقف العدائـى .. موقف المضمـر للعدوان ، والمتربـص به ، والمصر عليـه يرى الإسلام أن يُعطوا فرصـة فإن هم عدلوا عن العدوان وباشروا ما يدل على عـدولهم عنه باتباعهم سبيل الله من : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكـاة ، فهم إخـوان للمؤمنين فى الدين ، لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّين ﴾ .

وجعل القرآن إقامتهم للصلاة وإيتائهم للزكاة تعبيراً لعدولهم عن اتجاههم فى المادية ورجوعهم إلى سبيل الله ، لأن فى الصلاة مناجاة لله وحده ، وفى الزكاة إخراج للمال ، وليس تحصيلاً له . وفى مناجاة الله وحده عدول عن « الشرك بالله » وفى إخراج المال عدم الوقوع تحت تأثير الاتجاه المادى .

وإن هم استغلوا هذه الفرصة للعداء ضد الدين وضد المؤمنين فالأمر بقتالهم أمر لازم لا مفر منه ، حتى ينتهى خطرهم بعودتهم إلى الإسلام ، إذ المادية والشرك طارئ على دين الله : ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُم مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ (بعدم توبتهم وعودتهم إلى سبيل الله) وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ إلى أن يقول : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

والقرآن هنا إذ يأمر بتوجيه القتال أولاً إلى أئمة الكفر فيهم فلكى يأخذ المؤمنون بالرؤوس المدبرة للعدوان فيهم وعندئذ يضعف شأن الباقين منهم ، مهما كثر عددهم . وهذا « تاكتيك » فحسب ليس القضاء عليهم . وليس المقصود منه ترك من عداهم بدون قتال . فآية أخرى فى سورة التوبة أيضاً توضح مثل هذا الإجمال ، إذ تقول : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

وقتالهم المفروض على المؤمنين حتى ينتهى خطرهم (بإعلان إسلامهم) ينص عليه قوله تعالى :

﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ

---

(١) التوبة : ٣٦

أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ (والفتنة هى خطر المادية ـ أو خطر الشرك) ، وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْا (بالإسلام) فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ (أى حتى لا يكون خطراً لماديتهم بإسلامهم) وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ (هذه الجملة تأكيد لما سبقتها) ، فَإِنِ انتَهَوْا (بكون الدين لله) فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١) (أى فـــلا قتال من جانب المسلمين إلا على من يرتكبون الظلم) .

ثم من جهة أخرى ليس قتال الماديين الملحدين ـ من جانب المسلمين ـ موقوتاً بأمر أولئكم المكيين منهم ، كما قد يفهم قصر القتال عليهم من مثل هذه الآية : ﴿ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ (أى من مكة) وَهُم بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ (لقرابة بينكم وبينهم أو لكثرة عددهم) ، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .. إن هذه الآية تشير إلى حوادث الماديين الملحدين المكيين وقد جاءت بين آيات القتال للمشركين أو الماديين فـربما يظن أن مطاردة الماديين إلى أن ينتهوا ويعودوا إلى الإسلام مرتبطة بوقت الرسول عليه الصلاة والسلام فقط . وإذن لا قتال ضدهم بعد فتح مكة ونصر المؤمنين عليهم بهذا الفتح المبين .

وإذن كذلك يجب أن يظن أن الأمر على هذا النحو من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية . فهو موقت كذلك بالنصر النهائى للمؤمنين عندما تم فتح مكة ، فقد جاء أمر قتال الكافرين فى تنوعهم فى آية واحدة هى :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ (وهم الماديـون الملحـدون ـ أو المشركون) وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٣) .

وإذن أيضاً الجهاد فى سبيل الله فريضة موقوتة انتهت بانتهاء فتح مكة وبعودة الإسلام إلى مقر رسالته الأولى فيها . وقد كانت مكة مقر الرسالة الإلهية على عهد إبراهيم عليه السلام .

---

(١) البقرة : ١٩١ ـ ١٩٣ (٢) التوبة : ١٣ (٣) التوبة : ٢٩

وقد أشاع هذا الظن بعض الفرق الإسلامية المستحدثة فى ظل الحكم الأجنبى للمسلمين فى القرن التاسع عشر ـ وهى فرقة القاديانية ـ رغبة فى توطيد الأمن والاستقرار الأجنبى فى حكمه وفى استغلاله لموارد البلاد الاقتصادية والبشرية .

ولكن ماذا يصنع المؤمنون بالله عندما يتحرك ماديون جدد ضد مجتمعهم وضد إيمانهم بالله فى مستقبل قريب أو بعيد ، وقد شرح القرآن موقف الماديين الملحدين وجعل خطرهم وفتنتهم على الإيمان بالله أكبر من قتالهم ضد المؤمنين به : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ ؟ (١)

١ ـ أهناك ما يمنع وجود ماديين من جديد يلحدون بالله ويتحدون الله ورسوله ، يخرجون من بين الذين اتبعوا كتاب الله من قبل ؟

٢ ـ وأليس الماديون الملحدون ـ أو المشركون ـ هم الذين وقعوا تحت تأثير الاتجاه المادى فى الحياة ، وآثروا الدنيا على الآخرة فأنكروا وجود الله كما أنكروا اليوم الآخر ، كى يتمكنوا من أن يستمتعوا بالمتع المادية فى غيبة رقابة الضمير الإنسانى ، والخشية من الله ، والسلوك الأخلاقى والقوانين الإنسانية عامة ؟

٣ ـ وما معنى قول الله تعالى فى شأن هؤلاء الماديون : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (٢) فيحكم القرآن ـ بصيغة المستقبل ـ على « الطبيعة المادية الملحدة » وعلى شأنها : متى وأين وجدت .

إن فتح مكة كان نصراً مبيناً للإيمان بالله فى ظل رسالة الرسول محمد ﷺ ، ولكنه لم يكن نهاية التحديات للإيمان بالله . إذ طالما الإيمان بالله موجود كان معه التحدى من الكافرين به ـ فى قوة أو ضعف ، وفى قلة أو كثرة ـ وهنا القتال كصورة من صور الجهاد فى سبيل الله ضرورة دائمة ، وفريضة مستمرة وغير موقوتة .

إن الإسلام إذا كان دين الحياة الإنسانية فإنه لا يضمن فى ذات الوقت أن يؤمن به جميع البشر فى أى جيل وفى أى عهد . وإذا لم يضمن الإسلام إيمان

---

(١) البقرة : ٢١٧ (٢) البقرة : ٢١٧

الجميع به فى أى جيل وفى أى وقت فإن عدم تحديه ممن لا يؤمنون به غير مضمون كذلك فى مستقبل الإنسانية .

وإذا كان تحدى الماديين الملحدين لله ولرسوله فى مكة كان حلقة فى سلسلة تحديات مادية سبقته للرسالات الماضية على عهد الرسل السابقين كما تذكر الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِى الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى ، إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١) ... فسلسلة التحديات للإيمان بالله مستمرة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبعد فتح مكة ـ وفتح مكة ما هو إلا نصر واحد على المادية ـ وليس أخيراً وإن كان نصراً مبيناً ـ فى سلسلة انتصارات عديدة وعد الله بها المؤمنين . والمؤمنون لا ينتهون إلا بانتهاء الحياة الإنسانية فى هذه الدنيا .

ثم إن تعبير الآية فيما تقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بصيغة المستقبل تفيد : أن التحدى لله ولرسوله لم ينته بعد . وإنما هو مع الإيمان فى أى وقت . ولهذا فالقول بتوقيت فريضة الجهاد بعيد عن الروح الإسلامية والإيمان بالإسلام .

ولعنف المادية الإلحادية ـ أو لعنف الشرك بالله ـ على الإيمان والمؤمنين بالله ولخطورتها على ما يتصل بالإسلام لا يستقيم فى تصور الإسلام أن يوجد مؤمن بالله على صلة مودة بملحد مادى : ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (٢) . ومعنى ذلك أنه : إذا وُجِدَ من يتودد من بين المؤمنين إلى الماديين الملحدين فهو ليس بمؤمن على الحقيقة وخارج على الإيمان كلية .

ووضع المؤمنين مع هؤلاء الماديين الملحدين ـ أو المشركين ـ هو إذن

---

(١) المجادلة : ٢٠ ، ٢١ (٢) المجادلة : ٢٢

إما القتال .. إلى الإسلام ، وإما على الأقل عدم التودد والركون إليهم فى ولاء أو شبه ولاء ، إن كانوا هم معهم على عهد :

﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ (أى ورجعتم إلى الإسلام) فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِن تَوَلَّيْتُمْ (أى أعرضتم وإستمررتم فى غيكم) فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ (أى ستنالكم الهزيمة حتماً) ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * (أى وبالإضافة إلى الهزيمة فى الدنيا سيكون العذاب لهم فى الآخرة) إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

فهذا النداء من الله ورسوله يوم الحج الأكبر - يوم الوقوف بعرفات وتجمع المسلمين فى وقت واحد ، وعلى مكان واحد ، وفى دعاء واحد إلى المولى جل شأنه - بالتبرؤ من المشركين ، وهم الماديون والملحدون ، يعتبر وثيقة إيمانية يلتزم بها المؤمن فى كل وقت فى غير شبهة وغير شك . وما جاء فيها يحدد الموقف النهائى للمؤمنين . فالإسلام مطلوب منهم أولا : ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فإن أبى كل منهم التوبة فالقتال حتى النصر عليهم : ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ ﴾ . وفقط يُؤَمَّنُ منهم من كان له عهد عند المؤمنين فترة العهد ، على شرط أنهم لا ينقضونه من جانبهم ولا يستعدون عليهم أحداً : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ﴾ . إذ أن الوفاء بالعهد مظهر من المظاهر الإنسانية الكريمة التى تتطلب ضبط النفس وعدم الانسياق وراء الانفعالات الهوجاء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ . والمتقون هم أولياء الله الذين تحرر سلوكهم من الهوى والشهوة .

* * *

(١) التوبة : ٣ ، ٤

ليس فى القتال معجزة

ومع أن المؤمنين أصحاب إيمان باللّه ، مع أنهم حينما قاتلوا أعداءهم من الكافرين إنما كانوا يقاتلونهم فى سبيل اللّه ، ومع أن الكافرين غير معجزين للّه فى النصر عليهم ، إلا أن اللّه سبحانه وتعالى جعل للكـــون وللحياة سنناً لا تختلـــف عنها . والقتال صورة من صـــــور الحياة . فهو خاضع لسننه الخاص. وسننه الخـــاص : أن الذى يرتفع فى قتاله مع عدوه عن مغانـــم الدنيـــا ويخلص للّه ولإعلاء كلمته هو الذى ينتصر أخيراً . فهو مجال اختبار للإيمان باللّه،كما هو مجال تدريب على التضحية بالنفس ، وبمقدار ما يخلص فيه المؤمن يهون عليه أن يضحى بذاته فى سبيله : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (١)

فالآية تعبر عن ثلاثة مبادىء :

١ ـ المبدأ الأول : أن اللّه قـــادر على أن ينتصر من أعداء الإيمان فور أن يشتبكوا فى القتال مع المؤمنين .

٢ ـ المبدأ الثانى : أن اللّه لا يريد أن ينتصر عليهم بادىء ذى بدء ، حتى يتضح عياناً ما عليه المؤمنون من إيمان فى قوته أو فى ضعفه ، فى لقائهم مع الأعداء .

٣ ـ المبدأ الثالث : أن من يُقتل من المؤمنين فى ميدان القتال له أجره ، ولن يفوته أبداً .

وإذا كـــان القتال مجال اختبار للإيمان باللّه فى قوته وفى ضعفه ، فالنصر أو الهزيمة إحدى نتائجه . وكما يوصل إلى النصر إذا كان الإيمان قوياً ، فإنه يوصل إلى الهزيمة إن كان الإيمان ضعيفاً .

---

(١) محمد : ٤

وقوة الإيمان فى السيطرة على هوى النفس والترفع عن المتع والأسلاب والغنائم .

وضعف الإيمان فى النظر إلى تلك المتع والأسلاب والغنائم ، واستهدافها فى القتال ، إما خالصة ، وإما مع الإسهام فى إعلاء كلمة اللّه .

وهنا ليست فى القتال معجزة ، وإنما النصر فيه ـ كالهزيمة فيه ـ مرتبط بمستوى الإيمان . وتوضح الآيات التالية قانون القتال ، وهو قانون لا يتغير لأنه يصوِّر إرادة اللّه ، فيما يقول القرآن الكريم :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً ، وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

فإرادة اللّه فى واقعة « أحد » قد تجلت فى هزيمة المؤمنين . لأنهم لم

---

(١) آل عمران : ١٣٧ ـ ١٤٨

يثبتوا فى أماكنهم التى وُضِعوا فيها فى مواجهة الأعداء ، واختلت صفوفهم عندما لاحت لهم بارقة نصر على أعدائهم من الماديين الملحدين المكيين ، قبل أن يتم لهم هذا النصر نهائياً . وكان انصرافهم للمنافسة فى الحصول على الغنائم المادية ، وتركوا الرسول عليه الصلاة والسلام مع قلة من المؤمنين معه ، وكانت الضربة الأخيرة لهؤلاء الماديين السبب فى نصرهم على المؤمنين .

وقد جاءت هزيمة المؤمنين فى « أحد » بعد نصرهم فى « بدر » . وبذا بدا السبب واضحاً لهم فى النصر والهزيمة . ولولا هزيمة « أحد » لربما اعتقد بعض المؤمنين أنه يكفى للنصر على عدو الإيمان ـ وبالأخص ذلك العدو الشرس ، وهو المشرك أو المادى – أن ينتسب المؤمنون الى الله دون أن يحققوا ما يطلبه الإيمان من الإخلاص للّه ، والصدق فى سبيله ، والصبر على ما يلحق المؤمن من مشقة وإيذاء . أو لربما اعتقد بعضهم كذلك أن الإيمان مصدر رزق دنيوى وأنه « سحر» يستتبع نتائجه حتماً ولوكان ضعيفاً ، ولو كان وسيلة أخرى لتحصيل المغانم والمُتع .

وهنا جاءت الآيات التى ذُكرت قبل ، توضح ما يجب أن يُستخلص من الهزيمة ، طالما « القتال » من طبيعته أن يُوصل : إلى نصر وإما إلى هزيمة . وما يجب أن يُستخلص من الهزيمة ليس هوالضعف والتفكك ، ولا هو الحزن واليأس .

وإنما يجب أن تقود الهزيمة إلى « القوة » وإلى « النصر» فى قتال لاحق إذا ما أُبعدت عناصر الضعف فيه : وهى عناصر الرغبة فى المتع المادية والأسباب الشخصية . فالقتال فى نظر المؤمن يجب أن يتمحض للّه فليس هو لشخص ، ولا وسيلة لدنيا تحصل ، وما يستخلص من الهزيمة ـ حسبما تذكر هذه الآيات ـ هو :

(أ) أن أمارة المؤمن أن لا يضعف ولا يحزن : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ ﴾ .

(ب) وأن الهزيمة إذ تلحق المؤمنين اليوم فقد لحقت أعداءهم بالأمس .ومبدأ الحياة : تبادل النصر والهزيمة ، والانتهاء بالنصر للمؤمنين الصادقين ،﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾.

(جـ) وعن طريق الهزيمة يميز اللّه المؤمنين حقاً وصدقاً ، من أولئكم الذين يتسترون وراء إعلان الإيمان ، وهم المنافقون ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

(د) ولكى يشهد المؤمنون الصادقون ـ تبعاً لذلك ـ المنافقين بينهم شهود رؤية وعيان .

وهذا الجانب فى تجربة القتال ، يخرج منه المؤمن مصقولاً وثابتاً على إيمانه ، وفى صقله وثباته على الإيمان محق لأعدائه قطعاً .

(و) ولولاها لما اتضح المجاهد صدقاً ، والصابر حقاً فى القتال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ ؟

(ز) والهزيمة لا ينبغى أن يكون سببها شخص ، ولوكان شخص الرسول عليه الصلاة والسلام . إذ القتال فى سبيل الله هو للمبادىء التى فوق الأشخاص : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ ؟

(ح) كما لا ينبغى أن تكون ـ أى الهزيمة ـ مصدر أسف على قتل من يُقتل ، أو على فوات مغنم ، فالموت مرهون بإذن اللّه وقضائه وحده ، والدنيا لا يُحرم منها من يطلبها مباشرة ، ولكن جزاء الآخرة ـ وهو الأهم ـ للمجاهد الصادق الصابر :﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً، وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ .

(ط) ولم يكن الرسول ﷺ ولا المؤمنون معه بدعاً فى هزيمة لحقتهم . بل وقع ذلك مع الرسل السابقين . وكانت الهزيمة مصدر إخلاص ومناجاة للّه ، ومصدر قوة تثبيت الأقدام وتحقيق النصر ضد الأعداء : ﴿ وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ

رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

(ى) وأوصلتهم الهزيمة إلى نصر فيما بعد : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا (وهو النصر على الأعداء) ، وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

وإذن من شأن الهزيمة أن : توقف على الأخطاء التى ارتكبت فى القتال ، فى الوقت الذى ترشد فيه إلى قانون الحياة ، وهو : أن النصر ليس وقفاً على فريق بالذات ، وإنما هو تداول بين الفرقاء الذين يشتركون فى القتال ، وهو من حق القوى فى إيمانه أولاً ، بينهم . وإذن قانون الحياة بين الناس لا يعرف المعجزة .

والهزيمة إذن هى فى ذاتها تنطوى على « قوة » إذا عرف استخلاصها ثم استخدامها .

* * *

النصر النهائى للإيمان باللّه

ومع أن القتال ابتلاء واختبار ، ومع أن النصر يخضع ـ كما تخضع الهزيمة فيه ـ إلى قانون لا يتخلف بمثل إرادة اللّه ، فإن هناك أيضاً قانون آخر للحياة يمثل إرادة الله كذلك . وهو قانون النصر النهائى ، وتصوره الآية القرآنية فيما يقول اللّه جل شأنه : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (١) . فإنه هو العلى الكبير وإنه الحق فلا بد أن ينتصر . وما عدا الله هو الباطل ، والباطل ضعيف فلا بد أن ينهزم .

والنتيجة الضرورية لهذا القانون هو أن الذين يقاتلون مخلصين وصادقين فى سبيل الله لا بد أن يُنصروا على الآخرين فى قتالهم معهم وهم الذين قاتلوا فى سبيل الباطل أو الطاغوت . وتصرح آية أخرى بهذه النتيجة اللازمة

---

(١) الحج : ٦٢

فيما تذكره : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ (وهم أولياء الطاغوت والباطل ، أو هم الماديون الملحدون أو المشركون) إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (١).

وضعف الشيطان ، أو ضعف أوليائـــه - وهم المشركون أو الماديون الملحدون - هـــو فى اتبـــاع الهـــوى والشهـــوة. ومن يتبع هـــواه وشهوتـه يصوِّر خط سيره فى الحيـــاة تعرجات تنبىء عن تقلبـه فى سبيل اتباع الهوى وتحقيق الشهوة .والمتقلب ليس لـــه مبـــدأ يتمسك به . وهو إذن لا يقاتـــل إلا مُكرهاً. والذى يقاتل مكرهاً يفر من ميدان القتال فورأن يجـــد مخلصاً لنفسه . وهو من أجل ذلك ضعيف لا يثبت . ومن لا يثبت تلحقه الهزيمة حتماً .

أما «الحق» جل جلاله فهو ثابت لا يتغير . أما الذين يقاتلون فى سبيله فهم يقاتلون عن اختيار ، ويرون فى القتال قُربى إلى اللّه . لا يصرفهم عنه متاع الدنيا ولا شهوة النفس . ولا يسيطر عليهم أثناء القتال هوى الذات . فقد ارتضوا الآخرة بدل الدنيا وباعوا أنفسهم للّه وحده : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢) .. ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٣).

فهم أقوياء بإيمانهم ، وثابتون فى القتال من أجل هذا الإيمان .. ولذا يكون النصر النهائى لهم . وإن هُزمـــوا فى موقعة فليتخذوا من الهزيمة فيها قوة فى موقعة أخرى ، وليبعـــدوا عن أنفسهم عناصر الضعف التى اكتشفوها فى هزيمتهم .

---

(١) النساء : ٧٦
(٢) النساء : ٧٤
(٣) التوبة : ١١١

القانون الذى يربط النصر النهائى فى القتال بالإيمان بـ « الحق » وأتباعه ، ويربط الهزيمة النهائية باتباع الباطل وماديات الحياة وحدها ، قانون طبيعى تتجلى فيه الإرادة الإلهية كما تتجلى فى خصائص الطبيعة البشرية التى تحكم الإنسان والمجتمعات الإنسانية .

وفتح مكة على عهـد الرسول عليه الصلاة والسلام كان نصراً نهائياً له ـ ونصراً مبيناً ـ على أعدائه . وبالأخص على أولئكم الماديين الملحدين ، وهم المشركون المكيون . . كان نصراً له أخيراً بعد تردد له بين نصر مرة وهزيمة مرة أخرى فى اشتباكاته مع أعداء الإيمان . ولم تقده الهزيمة فى نهاية «أحد» وفى البدايـة فى « حنين » إلا إلى القـوة فالنصر . وفى هـذا النصر النهـائى كقانون للحياة يقول اللّه تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِـدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيـراً * سُنَّةَ اللّه الَّتِى قَدْ خَلَتْ من قَبْلُ ، وَلَـنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللّه تَبْدِيلاً * وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وكَانَ اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ (١) .

... ومنطوق هذا القانون ـ كما تصوره الآية الكريمة ـ هو :

أولا : أن أعداء الإيمان باللّه ، وبالأخص الماديون الملحدون منهم ، إذا باشروا القتال مع المؤمنين لا بد أن يفروا ويولوا الأدبار ، وليس لهم معين ونصير بعد ذلك .

ثانياً : أن ذلك يتجلى فى أحداث التاريخ الماضية كلها ، ويتجلى أيضاً فى فتح مكة . وإذن لا شبهة فى التلازم فى الوقوع بين قضاياه :

يوجد الإيمان فيوجد النصر .

ويوجد الإلحاد فتوجد الهزيمة .

ومفهوم هذا القانون أنه إذا وجد المنتسبون للإيمان ، دون أن يوجد الإيمان حقاً وصدقاً فى قلوبهم ، فلا يوجد النصر لهم تبعاً لانتسابهم إلى الإيمان وحده، فالهزيمة التى انتهت بها « أحد » وابتـدأت بها « حنين » تبعت انتساب بعض

---

(١) الفتح : ٢٢ ـ ٢٤

المؤمنين إلى الإيمان ، من غير أن يتمكن الإيمان باللّه فى نفوسهم . وهذا المفهوم صادق كقانون فى الماضى وفى حاضر المؤمنين ومستقبلهم .

ومثله قانون آخر يعبر عنه قول اللّه تعالى :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (١) .

فالذين كفروا باللّه هم سواء فى عدائهم للمؤمنين ، وهم أولياء بعضهم بعضاً، مهما بدا بينهم من خلاف .

فأهل الكتاب الذين لا يدينون دين الحق هم أولياء لأولئكم الماديين الذين لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر ، ولا يُحَرِّمون ما حَرَّم اللّه ورسوله وهم جميعاً أعداء المؤمنين .

فمن يفرق من المؤمنين بين النوعين ، ويعلن الولاء لفريق بعد أن يظن الخير به ، ويبقى على الحيطة والحذر فى مواجهة الفريق الآخر ملتزماً موقف الإسلام من أعداء الإيمان ، فإنه بولائه يجلب الخطر على المؤمنين جميعاً وعلى الإيمان باللّه ويكون سبباً فى الفساد والعبث الذى يلحق مجتمعات المؤمنين : ﴿ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ (أى إن لم تعتقدوا فى ولاء الكافرين بعضهم لبعض وتقاربهم فيما بينهم واتفاقهم جميعاً ضد المؤمنين ، وإن لم تتخذوا منهم موقفاً موحداً ، هو موقف الحيطة والحذر ، مهما بدا من بعضهم من تودد فهم ﴿ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢)) تَكُن فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ .(٣)

والمؤمنين الذين هم فى ولاء مع أى من النوعين لا يحق لهم أن يلوموا الإسلام وانتسابهم إليه إذا ما لحقهم الأذى والضرر بسبب هذا الولاء . وإنما يجب أن يعودوا باللائمة على أنفسهم بمخالفتهم إرادة اللّه التى تتجلى فى ذلك القانون الذى يحكم مجتمع المؤمنين فى مواجهة العداء الدفين للإيمان باللّه والمؤمنين به .

* * *

(١) الأنفال : ٧٣
(٢) التوبة : ٨
(٣) الأنفال : ٧٣

أجر المقاتل عند اللّه

أما أجر المقاتل « فى سبيل الله » عند الله فهو أجر متميز . والمجاهد فى سبيل الله عامة بنفسه أو ماله ، له مستوى يرتفع به عن مستوى المؤمنين الآخرين الذين قعدوا عن الجهاد ، وعن مستوى أولئكم الذين يباشرون من أعمال الخير ما لا يرقى عن الجهاد بالنفس . يقول الله تعالى :

﴿ لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلاً وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (١) ،

ويقول أيضاً :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَآجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللّهِ ، لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللّهِ ، وَاللّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(٢) .

. . . وتفضيل الله للمقاتلين فى سبيل الله تفضيل واضح ، ودرجتهم عنده هى درجة المبشرين برحمته ورضوانه وجناته وبالنعيم الخالد الذى لا ينتهى . والمقاتل فى سبيل الله إن قُتل أو مات فى الجهاد لا يعد من الأموات الذين انتهى أمرهم ، بل من الأحياء الذين تتوفر لهم صفات الحياة المستمرة : ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَكِن لا تَشْعُرُونَ ﴾ (٣)

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (٤)

---

(١) النساء : ٩٥ (٢) التوبة : ١٩ ـ ٢٢

(٣) البقرة : ١٥٤ (٤) آل عمران : ١٦٩

ولا شك أن الذى يضحى بنفسه ـ قبل الذى يضحى بماله ـ فى سبيل الإيمان باللّه بلغ مستواه فى قوة الإيمان أعلى درجة ، بحيث أصبح لا يرى ذاته فى الحياة شيئاً مستقلاً فى الوجود يستحق أن يحافظ عليه من أجل وجوده الخاص . إنه بالتضحية بذاته قد ألغى أنانيته وتجرد من خصائصها . فهو لا يؤثر الإيمان باللّه على نفسه فقط . وإنما « باع » نفسه فعلا للّه كلية . والوجود أمامه الآن : اللّه جل شأنه والإيمان به ، لا غير .

* * *

الجهاد اليوم فى سبيل اللّه

١ ـ من هم اليوم أعداء الإيمان باللّه الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر ، ولا يُحَرِّمون ما حَرَّم اللّهُ ورسوله ؟

٢ ـ ومن هم كذلك الذين لا يدينون دين الحق من الذين أُوتوا الكتاب ؟ وكيف أن هؤلاء وأولئكم بعضهم أولياء بعض ؟

كان المشركون بالأمس على عهد نزول القرآن هم الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر، ولا يُحرِّمون ماحرَّم اللّه ورسوله . وكان بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى لا يدينون دين الحق . وقد طلب القرآن الكريم من المؤمنين ـ الجهاد فى سبيل اللّه ـ أن يقاتلوا الفريق الأول حتى يسلم أهله ، وأن يقاتلوا الفريق الثانى حتى يخضع :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّه وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (١) .

وقد تجلت صلة المشركين بالكتابيين الذين لا يدينون الحق ، وتجلى ولاء بعضهم لبعض فى المؤامرات العديدة وانكشف واضحاً فى : واقعة «الأحزاب »

---

(١) التوبة : ٢٩

ضد المـــؤمنين ، ومن هنا جاء التحذير ـ بعـــد التقرير ـ فى قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (١) .

* * *

إن الـــذى لا يؤمن باللّه ولا باليوم الآخـر هو مادى . لا يؤمن بالله لأنه لا يراه ولا يحسه ، ولا يؤمن بالآخرة لأنها فى عالم الغيب وليست فى عالم الشهادة . والمادى هو الذى يؤمن بالمادة فقط . والمادة تتشكل فى صورة محسوسة وملموسة . فيدركها البصر أو السمع أو اللمس أو أية حاسة أخرى من الحواس الخمس .

والمشرك فيما مضى هو مادى . ولأنـــه مادى كان لايُحَرِّم ما حَرَّم الله ورسوله . يُحل لنفسه كل ما هو فى وجوده المادى المشاهد . لا يعرف حقاً لغيره فيما هو موجود مادى مشاهد ، وبالتالى لا يعرف له حرمة خاصة لا ينبغى أن تُنتهك . وإنما كل ما يقع عليه حسه ـ ولوكان لغيره ـ فهو مباح له أخذه ، والاستمتاع به ، ولو من حساب شقاء الآخرين أو حرمانهم .

لا يعرف الفواحش والمنكرات ، ولا الإثم ولا البغى والظلم .

ولا يعرف العدوان والاعتداء . ولذا لا يُحَرِّم على نفسه ما حَرَّمَ اللّهُ ورسولُهُ ، حفاظاً على حقوق الآخرين فى الوجود المشترك معه .

والمشرك الذى هو مادى ، أنانى . إذ الأنانى هو من يقر بالذات دون أن يعترف بالآخرين معه . هو الذى ينسى حقوق الآخرين فى سبيل متعة نفسه . هو الذى يجعل الذات مركز الوجود ، يدور هذا الوجود حولها ولصالح الذات وحدها . وهو ـ أى الأنانى ـ يدور حول نفسه ليقتنص منافع الوجود المادى فيما يحيط به . فهو يتجه حسبما توجد منفعة مادية ، وقبلته فى العبادة ليست قبلة واحدة . هو كعباد الشمس يتجه إلى جميع الاتجاهات بطريق الجاذبية .

ومشرك الأمس ـ كما جاء فى تعبير القرآن ـ هو اليوم صاحب الاتجاه الوجودى ، أو الانتهازى ،أو المادى ، أو الحسى ، أو الأنانى فى عُرف التفكير

---

(١) الأنفال : ٧٣

الفلسفى المعاصر . ويجمع هذه الأوصاف كلها « مذهب المادية » وبالأخص : المادية التاريخية .

والماديـــة التاريخية إذن تنكر وجود الله ، وتنكر اليوم الآخر ، ولا تُحرِّم ما حرَّم الله ورسوله . تتحدى وجود الله ، لأن الله لا يُرى ولا يُشاهد . وتتحدى اليوم الآخر وتجعله خداعاً وتخديراً ، وتضع بدلا منه ما يأتى به الغد على هذه الأرض من نِعم مادية لا تُحصى . . وتنكر صراط الدين فى السلوك والمعاملة ، كما تنكر مقاييس الأخلاق فى تحديد العلاقات بين الناس ، وترى الانطلاق فـى سلـوك الجنس لأنه المجال الحر الوحيد الباقى ، من بين مجالات الحياة الأخرى .

وفلسفة المادية التاريخية وجدت لتتحدى الدين . والذين يقيمون مجتمعاتهم عليها يقاتلون المؤمنين حتى يردوهم عن دين الله إن استطاعوا . وما قاله القرآن فى مشركى عهده : فى تحديد صفاتهم ، وفى موقفهم من المؤمنين بالله ـ كما ذكر من قبل ـ ينطبق تماماً على أولئكم الذين يتبنون الفلسفة المادية التاريخية فى توجيه شعوبهم ومجتمعاتهم .

* * *

أما الـــذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب فهم فى الدرجة الأولى الذين يبعدون الدين عن التوجيه والتربية . هـــم الـذين يأخـــذون اســم « العلمانيين » منهم ، هم الذين ينكـــرون قيمة الدين وإن لم يعلنـوا انكـــار الله واليوم الآخر . هم الذين يحددون للدين منطقته ولفلسفة الحياة منطقتها .

وهؤلاء العلمانيـون أولـياء لأولئكم أصحاب الفلسفة المادية التاريخيـة .لأنهم جميعاً ينتهون إلى غاية واحدة ، هى إضعاف الدين أو إبعاده عن مجال التأثير على حياة الإنسان . . هى إضعاف الإيمـــان بالله ، أو إلغاؤه من الوجود الإنسانى .

وولاء هؤلاء لأولئكم ، بعضهم لبعض ، تدفع إليه روح واحدة ، وتخطط له عقلية موحـدة فى العصر الذى تعيش فيـــــه الإنسانيـــة اليـــوم . وهى روح « العالمـية » والعقليـة اليهودية العالمية التى تتمثل مـــــرة فى الفلسفـة المادية

التاريخية ، أو الراديكالية الماركسية ، وأخرى فى الرأسمالية الليبرالية ، وثالثة فى الماسونية أو فى « البنائين الأحرار » .

وتستهدف هذه العالمية :

تحقيق « التعايش السلمى » للأقليات اليهودية فى شعوب العالم .

كما تستهدف إعادة مملكة الله على أرض المعاد ، أو إقامة إسرائيل على أرض « صهيون » كرمز للوحدة التاريخية للشعب اليهودى ، وفى الوقت نفسه كوطن يلجأ إليه من يشعر بالمذلة أو الاضطهاد فى أقلية من أقلياتهم العديدة .

ولا يمكن أن يتحقق التعايش السلمى للأقليات اليهودية فى شعوب العالم اليوم ، كما لا يمكن أن يتوطد أمن اسرائيل على صهيون ـ فضلا عن ازدهارها ـ إلا فى غفلة من الإيمان المسيحى فى الشعوب المسيحية ، والإيمان بالإسلام فى الشعوب الإسلامية ، وبالأخص فى الشعوب التى تحيط بصهيون ، ومن هنا جاء معول « العالمية اليهودية » ـ إن فى الراديكالية الماركسية ، أو فى النظام العلمانى ، أوفى الحركة الماسونية ـ ضد الإيمان بالله فى كل طبقة من طبقات الشعب :

١ ـ فالماسونية تتجه بمعولها للرؤوس وللرؤساء الذين يوجهون السياسة والاقتصاد فى الشعوب .

٢ ـ والعلمانية تسدد ما تملك من معول ضد تفويض القيم الدينية بين المثقفين والشباب فى دور التعليم المختلفة وفى وسائل الإعلام المتنوعة .

٣ ـ والراديكالية الماركسية تسدد وسائلها التخريبية المختلفة لمحو الدين أساساً وعلى الأخص بين العمال والفلاحين فى المجتمعات .

* * *

وجهاد اليوم فى سبيل الله إن اتجه ضد الماديين الملحدين فى الصور العديدة

لاتجاه المادية ـ وبالأخص ضد الماركسية الإلحادية ـ فإنه يشبه ما اتجه إليه بالأمس ضد من كانوا يسمون بالمشركين .

وإن اتجه إلى العلمانيين من أهل الكتاب ـ والعلمانيون هم من المسيحيين وحدهم كأهل كتاب ـ فإنه كذلك يشبه ما اتجه إليه بالأمس ضد الذين : ﴿ لاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ (١) .

وإذا اتجه إلى الروح العالمية أو إلى العقلية العالمية اليهودية ـ والصهيونية جانب منها ـ فإنه يكون قد اتجه إلى ذلك المصدر الذى يعقد الولاء والصداقة والترابط بين الماديين الملحدين ، والعلمانيين من أهل الكتاب لتحقيق الهدف المشترك ، وهو : إضعاف الإيمان بالله ومحاولة رد المؤمنين عن دينهم إن استطاع .

وإذا لم يتيقظ المؤمنون بالله .. إذا لم يتيقظ المسلمون اليوم إلى هذا المصدر الذى يعقد الولاء بين الاتجاهين فى عداء الإيمان بالله لتحقيق الهدف المشترك بينهما ، فالويل لهم آنئذ من خطره الداهم وفساده الكبير : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾(٢) .

* * *

وجهاد المسلمين اليوم ضد الروح العالمية أو ضد العالمية اليهودية يكفى ـ مع ضعف المسلمين فى حاضرهم ـ أن يكون فى المرحلة الأولى جهاداً بيقظة العقل والقلب ، وبالدعوة واللسان ، حتى لا يقع بعضهم فى صداقة أو مودة لأصحاب أحد هذين الاتجاهين فتحل الفتنة فى أرض المسلمين ويعظم الفساد فيها .

---

(١) التوبة : ٢٩ (٢) الأنفال : ٧٣

إن الصهيونية العالمية هـى جانب فقط من العقلية العالمية اليهودية . هى الجانب الذى يتبنى علناً دولة إسرائيل فى إقامتها وبقائها وازدهارها .

ولكن الذى لا يُعلن عن نفسه من العقلية العالمية اليهودية المحركة فى الواقع وهوالأخطر والأهم ـ هو :

الجانب الفكرى منها وراء دفع الراديكالية الماركسية .

والجانب الآخـر الاقتصادى وراء دفع العلمانية فى النظم الرأسمالية .

وعدم الولاء لأى من الجانبين ـ الراديكالى الماركسى والرأسمالى ـ هو الصورة التى يجب أن يبرز فيها الجهاد اليوم فى سبيل الله .

* * *

obeikandl.com